

## تفسير القرآن الكريم وفق نظرية الإعتبار



قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَيِّعًا مِنْ الْمَثَلَاتِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر/ 87). تمهيد: نظرية الإعتبار نظرية قرآنية تبين فيها المعاني القرآنية على وفق النشأة الإنسانية وتكاملها في ظل النظام الفطري الذي أودعه الله تعالى فيها، وهذا لا يبطل السلوك إليها من طريق النظام الإحساسي التخيلي "الفكري". ثم إن مساوقة الذين للفطرة هو الركن الذي نطق به الكتاب، والذي يعد أحد أركان هذه النظرية، حيث قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَىٰ هَٰذَا لَا تَدْرِي لِمَ لَخَلِقَ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ وَاللَّذِينَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم/ 30). والركن الآخر: قائم على خروج الإنسان بعمله بإعتبار قيام العلم فيه عن هذا العالم من غير أن يفارقه، ثم إن الكامل لا يفارقه مطلقاً، والناقص يفارقه بالموت الذي هو "التوفي" وهو عبارة عن أخذ الشيء ب كله، قال تعالى: (اللَّهُ يُتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) (الزمر/ 42)، وقد أشير إلى هذا الركن في قوله تعالى: (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (ق/ 22). ولعمري لو لم يكن في كتاب الله تعالى إلا قوله تعالى: (لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)، لكان فيه كفاية، إذ الغفلة لا تكون إلا عن معلوم حاضر وكشف الغطاء لا يستقيم إلا عن مغطى موجود، فلو لم يكن ما



القرآن الكريم في قوله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَى نَحْوِهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَائِمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم/ 30). والمراد من مفردة الحنيف هو الاعتدال، وهي الوسطية التي هي بمعنى الخروج عند حدي الإفراط والتفريط، والمعنى: إنَّ الفطرة لا تدفع الدين كما إنَّ الدين ليس له مكان ينزل ويستقر فيه إلا الفطرة، ولبعده عن الإنسان بسبب إنشغاله بالأوهام وصف بـ"ذلك" الذي هو إسم إشارة للبعيد، لقلة الواصلين إليه من أفراد النوع الإنساني، ولذا إرتفع هذا المضمون علمه عن أذهان أكثر الناس، ولا يدرون ماذا يعني مساوقة الدين للفطرة؛ لإنصراف الأذهان إلى الطريق الأوّل الذي لاشغل القرآن به؛ لنسبيته، كما هو ظاهر. وأنت إن دقت النظر في كلا الطريقين تجد ظهور الأوّل وخفاء الثاني، وهذه واحدة من الخدع التي خدع بها الإنسان في نشأته العنصرية، ومعنى الخدعة التي خدع بها الإنسان: هو وقوع الأوّل في طريق الثاني من غير أن يكذبه أو يقع في مقابله وهو لا يشعر، وحقيقته: أنَّ الأوّل يخالف الثاني من غير أن يبطله، فالرجوع إلى الطريق الأوّل لا يكون رجوعاً إليه مستقلاً عن الآخر، بل رجوع بما يوقعه في طريق الثاني، فالوقوف على الظاهر حق، ولكن الجمود عليه باطل، فيكون الغرض من الوقوف على الظاهر: هو تجاوزه والعبور إلى غيره، هذا الذي عبّر عنه القرآن بـ"التدبير" وهو الذي أوصى به الله تعالى في كتابه خلقه، ولم يوصيهم بشيء غيره، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد/ 24)، فربط الله تعالى إمتناع التدبير بقذارة القلب، وهي مسألة عجيبة لها إرتباط بالتطهير وسوء السريرة، قال تعالى: (إِنَّ زَنْهًا لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ \* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ \* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْتِحُونَ \* أَنْزَلْنَاهُ مِنْ مَدْيَنٍ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْزَلْنَاهُ \* تُكَذِّبُونَ) (الواقعة/ 82-77)، والإدهان بالقرآن التهاون به، وأصله التليين بالدهن، أستعير للتهاون، والأستفهام للتوبيخ، حيث إنَّه تعالى يوبخهم على عدهم "أمر القرآن" هينا لا يعتنى به. وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَلَا تَنَاصَوْا بِهِمْ \* تَسْمَعُونَ \* وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهَلْمُوا لَا يَسْمَعُونَ \* إِنَّ شَرَّ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ \* الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ \* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ \* وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ \* وَمَعْرِضُونَ) (الأنفال/ 23-20).

ولذا يجب على الإنسان العاقل الحكيم أن يفقه معناها، وإلا خسر نفسه وفسدت نشأته؛ لأن إمتناع التدبير موجب لنسيان الله تعالى، ونسيان الله تعالى موجب لنسيان النفس نشأتها،

ونسيان النفس لنشأتها موجب لرفض المعارف الإلهية، قال الله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنزَفُوسَهُمْ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر/ 19). ثم يجب أن تعلم إنَّ التدبير غير التأمل، فالتأمل هو الرجوع إلى ما إختزنه النفس من مفاهيم عن طريق التعلق بالحس، وأما التدبير فهو الرجوع إلى النشأة الإنسانية، ومعرفة كيفية ظهورها في ظل نشأتها العنصرية، وما هي الأمور التي أوقعتها في الخدعة التي بنيت عليها سعادتها في الدارين، فإنَّ لهذه النشأة الإنسانية خصائص ظهرت فيها عند ظهورها، لأنَّك بهذه المعرفة لو سئلت نفسك أن تهديك إلى ما يقوِّمها في نشأتها العنصرية لم تجبك إلا بنفس هذه البيانات والأوصاف التي نزل بها القرآن الكريم. ولذا سيأتي في بيان المنهج الذي نعتمد عليه: إنَّ التجرد عن الفكر أصل فيه، ولكن جعله في طريق النظام الفطري أصل آخر، فإن سلوك الطريق الفطري لا يعني إلغاء الفكر، بل سلوك هذا الطريق للوصول إلى إصلاح النشأة الإنسانية، يعني: هاهنا نظامان من غير أن يبطل أحدهما الآخر، وهو الذي أسميناه بالكذب المعرفي، وقد عرفت إنَّه غير الكذب المنطقي، ففي الكذب المنطقي يعني المخالفة للواقع، وأما هذا السخ من الكذب يعني المخالفة فقط، ولكن بشرط أن تقع في طريق الواقع، فإفهم. وبناءً على ما تقدم يكون المراد من التفسير: هو بيان معاني الآيات القرآنية، والكشف عن مقاصدها وأغراضها، والمراد من القيد الأوَّل هو العمل بالطواهر والتقيد بالخصوصيات المحيطة باللفظ من دون الإنحراف والتعدي عن ما تظهر فيه، والمراد من القيد الثاني هو ظهور أثرها في النشأة الإنسانية خارجاً، بحيث يكون المقدم سبباً لظهور المتأخر، في عين كون المتأخر سابقاً عليه، ونعني بالمتقدم الألفاظ وخصوصيتها، ونعني من المتأخر الأثر الذي ينشأ منها في مقام العمل. لينتج: إن ما هو الموضوع للآثار هو الحد للمعنى، وما صدق عليه من الأمور الحقيقية كان هو المصدق الحقيقي للحد، فإفهمه. وهذا المعنى الذي قلناه مع ظهوره فقد غاب عنه الكثير، والسر في غيابه عن الأذهان لا لإمتناعه بل لإبتداله وإعراض الإنسان عنه؛ وهو الذي كان وراء صياغه الآيات القرآنية، وإعطائه المعاني المساوقة لما تحتاج إليها الفطرة الإنسانية في سيرها التكاملية الأسمائي العملي بالوضع التعييني لا التعييني، ونحن سوف نشير إلى كل مفردة مفردة من هذا المنهج المعرفي الذي أسميناه به "الإعتبار" تحت عنوان "أصل"، في ضمن بيان معاني الآيات القرآنية، "والله يقول الحق وهو يهدي السبيل". المصدر: مجلة الكوثر/ العدد 27 لسنة 2012م